

الاستعمال في شؤون الحياة الجديدة كثيرا من مفرداتها عما كانت عليه في العصر الأول . وبذلك خسرت تلك الشحنة المصطنعة التي أشرنا إليها من قبل . ولكنها ربحت غير قليل من الصقل والرونة والمواتة

كان إذن عصر بني أمية عصر شباب للغة كما كان عصر شباب للأدب ، فالفطرة فيه قوية لم يمد بها الزمن من عهود البلاغة المطبوعة . والسلائق غنائية بسيطة لم تتركب بمد بساطة الحياة التي كانت تمارس في ذلك الزمان . هذا والأخلاق بوجه عام لم تتمتع بمد بتأثير الحضارة ، وما تتيحه للناس من خفض ولين ووثارة . وإنما كانت الأخلاق تمتاز بشيء من القوة والصرامة وقلة الفضول . والأثر الأدبي بما لذلك بيد ومطبوعا قد خلا من كل تكلف وتعمل ، وإن احتمل فيه قائله ضروبا من العنت والمشقة والعناء . وسيظل ذلك العصر كما كان منهلا ينهل منه أبناء العربية صورا من الكلام البليغ في كل زمان ومكان ، مانطق بالعربية لسان .

ولكنه لم يكسب يدنو من أواخره حتى بدت في الأدب طلائع البديع كما تبين ذلك من بعض عبارات اللجاحظ (١) في البيان والتبيين . وقد كان من الطبيعي أن تتطور طرق البيان بمد أن لانت المرائك وأصبح لمس الجمال المصنوع من مطالب الحياة . وثمة شيء آخر ، وهو أن الحياة العقلية لذلك العهد وإن

(١) مؤرخو الأدب على أن أول من اصطنع البديع كفن لقائه هو مسلم بن الوليد . ولكن الملاحظ يقول في البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠ (ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل المتأخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو المتأني . وكينيه أبو عمرو . وهما القاطن وحذوه ومثاله في البديع يقول جمع من يتكلم مثل ذلك من شعراء المولدين كعمر منصور النمرى . وسلم بن الوليد الأنصاري وأشياهما . وكان المتأني يمتدح حذو بشار بن الوليد . ولم يكن في المولدين أصوب يدبنا من بشار وابن هريرة .

هذا ما يقوله الملاحظ . ومعروف أن بشارا سبق في الزمن من مسلم بن الوليد . ومعروف أيضا أن كثيرا من الآثار الأدبية قد ضاعت مع الزمن . ومؤرخو الأدب أصدروا حكمهم هذا بالنظر إلى ما بين أيديهم من آثار . ومن هنا كان الملاحظ أصدق حكما لأنه أصدره وآثار الشعراء كانت إذ ذاك متداولة لم يضع منها شيء . فليقدر هذا النص

الأدب واللغة من الكائنات الحية

للأديب محمد عثمان الصمدى

- ٢ -

كان هذا شعور العربي باللغة ومفرداتها بل بالأدب أيضا . ومن أجل هذا يرى أن اللغة قد نشأت بطريقة وجدانية . ومن أجل هذا أيضا اختلفت ألوان البلاغات في القديم والحديث . وظل كذلك هذا الشعور في العصر الجاهلي إلى زمن كبير من صدر الإسلام حتى أصبحت اللغة لغة حياة جديدة فقدت كثيرا من مدلولاتها على الزمن من جهة ، ومن جهة أخرى زحزح

ولك المجلس الرفيع جلاء أبلج الرأي مكرم الوزراء
بايع الجيش منك إسكندر الأكبر في البأس والنهى والفتاء
صاحك السن لا بقسام المواشى مائل العطف لاهتزاز اللواء
إن خيلا حملن «سوزستريس» السمصر أولى الجياد بالخيلاء
ضافت الأرض عن جلالك في السلم فاذا تركت للهبجاء
حبذا الجند أنهم يا ابن «إيرا هيم» أبناء حجة الأقوياء
قت فيهم قيام جديك من قبلك في يومى الندى والقضاء
وعلى الآل من علاك جلال وكذ الرأس زينة الأعضاء
وحوايك «كامل» الفضل والصنو «على» متوجا بالبهاء
دام يرقى في ظل ملكك بدرأ في ذرى السمد ساطع اللآلاء
وتنهأ بالتمتين وفاخر بسما أعظم بها من سماه
وطنى قبلى وأنت إمامى بك فيها لوجه ربى اقتنائى
راعنى وارهنى وكن لى أسنى لك حبي وخلمتى وولائى
ولسانى فإنه لك إرثا عن أليك اشتراه بالآلاء
أنت مصر ومصر أنت قدوما أبدأ فى رفاهة نورفا
جيلة - سوريا -
محمد عثمان الصمدى

ببلت الخواطر والأذهان لم تكن قادرة على أن تنفخ من روحها في موضوعية الشعر شيئاً له خطر . وكل ما استطاعت أن توحى به هو فنية الصورة الشكلية أو فلسفتها دون الموضوع . ومن هنا جاء البديع وانتقل الأدب لذلك من طور إلى طور في تدرج طبيعى ملحوظ

ثم يمضى في هذا الطور حتى ينتهى إلى كهولته في العصر العباسى الأول . وهو يستقبل عهده الجديد حاملاً إليه ما حصل الشباب ، وفيضا غير كبير مما كان عليه من أريحية وحية وحاسة ، وإبه ليضى في عهده هذا مستوعباً لما حوله من مختلف ألوان العيش ، منتفعا بما يحيط به من الثقافات والمعارف . مستجيباً لما يحف به من حضارة وترف ونعيم . ومع هذا فقد هبطت درجة حرارته . وناله كثير من الفتور والإعياء . وأصبحت صور الأداء قوالب محفوظة تصلح لكل ما يملأ منها الفراغ . واعتمدت فيه أو كادت تلك السلائق الغنائية المستجيبة للشبوبة . أو قل صارت رواسب عقلية فحسب . ولكن الغناء أصل من أصوله ولا معنى للشعر عنه بحال . فليستعص عنه بتلك الغنائية التي تجيء نتيجة لتلاؤم الجمل والمبارات والألفاظ . ولهذا فهو مجرد فن فقط ، يظفر به من بعانيه بشيء من الدربة والممارسة ، وبالبرص بمنازع الكلام . وهو في عموه ككل شيء تله المديته بروقك منه الصقل والتنسيق ولكنه قلما تنبض فيه روح ، وإن لم يخل من الألمية والنفاد أحيانا . ولقد استتبع خلوه من الروح خلوه من الموضوع ؛ وبالتالي فقد الوحدة التي تربط بين عناصر الأثر الفنى المحتفل به . وبذلك فهو معرض للحياة بكل ألوانها ما اختلف منها وما اختلف . ولا ريب في أنه احتفظ بأكثر مما ينبغي له من تقليد للتقديم ، ومن رسم له لخطاه ولئن أخذ مادته مما حوله من حياة ، فهو قد أخذ أيضا أدوات التصوير لها ، والتعبير عنها من حياة البادية دون الحياة المعاصرة له ، تلك التي كان ينبغي له ألا يعدوها في شيء سواء في ذلك مادته أو وسائل الإفصاح عنها والأداء . وليس من العجب في رأينا — وإن لم يكن من الحسن — أن يرجع إلى حياة البادية فيتحذها موضوعا ؛ أو يتخذ منها أداة للبيان . فهو كما قلنا ، وكما زيد أن نقول ، كائن حتى . وأى عجب في أن يرجع الكائن الحى إلى ذكرياته وفي وسعه الرجوع إليها . تلك التي قد تتيح له المزاء والسوى .

أو تحقق له المثل الأعلى فيها هو منه يسيل . ثم هل انقطعت تلك الوشائج التي تربط بين حاضره وماضيه . من المحقق أنها لم تنقطع . بل هي أوثق وأقوى مما كان يجب أن يكون . وشيء آخر يجب أن نلفت إليه النظر في هذا المقام . وهو : ما هي الصلة بين الأديب والأدب . وعندى أنها صلة المرسل الكهربي بالتيار . أو هي صلة الشملة بحاملها يتسلمها ثم يذكيها ويمدو بها ليدعها آخر الشوط إلى من يضع بها صنيعه وهكذا . ثم ماهو الأدب ؟ أليس الأدب في حقيقته بعض دوافع الحيوية في النفس . ولئن صح هذا فإن سلسلة حيوات الأدياء الذين تماقبوا في لغة ما توفى امتداداً لحياة الأدب على الزمان . ومن ثم فهو كائن حتى . وهو كذلك في تطور وتجدد . لأنه آثر من آثار تلك الحيوانات التي لا بست الزمان والمكان . وهذان لا يستقران على حال . ولهذا فقد كان الأدب في تطور وتجدد في كهولته التي تتحدث عنها إلى جانب عناصر التقليد التي انحدرت إليه من ماضيه القديم ولا تزال حية فيه

كان هذا شأنه ، تجدد في مسيرة الحياة المعاصرة له . وتحجر في وسائل الأداء والتعبير . وكما تحجرت فيه صور الأداء ، كذلك تحجرت اللغة في أنفس الناطقين أيضاً . وأصبحت مفرداتها لا تدل على المعنى اللغوى منها فحسب . وأندثر ما كان فيها من شحنة وجدانية ، بل لقد سار النظر إلى العبارات وإلى فهمها فيها إجمالاً . ونظن الفقرة الأخيرة هذه في حاجة إلى توضيح . فلنضرب لها مثلاً . قال بعض الشعراء من قصيدة يحبى مؤمراً جنرافيا

يا موكب العلم قف في أرض منفبه ينج مهداً ويذ كر للصبا شانا
كان المستمع إلى هذا البيت لا يمتيه منه إلا معناه على وجه الإجمال . وهو أن العلم نشأ أول ما نشأ في مصر القديمة . دون أن يلتفت إلى البناء إلى موكب العلم . ولا إلى الأمر بوقوفه في أرض متفيس تلك المدينة المصرية القديمة . ولا إلى مناجاته لمهد الأول . ولا إلى ما كان له من ذكرى شأنه في صباه ، وحسب القارىء أو المستمع المعنى الجميل الذى أشرنا إليه